

في المدينة قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لا يملأ أحد من البحر إلا جملاً واحداً، ففعلوا ذلك، فأوفى النيل فقال: يا هؤلاء! كيف رأيتم رأيي عليكم؟ ما هو إلا رأى صارك. وكان قراقوش ظن أن هذه الجمال هي التي تنقص ماء النيل فتمنع الفيضان! وأيضاً فقد فاته أنه إنما حرم على هذه الجمال أن تحمل الماء مجتمعة ولم يحرم عليها أن تحمله منفردة، فحكمه من هذه الناحية لا نتيجة له، ولكنه قراقوش مثله عصره والعصور التالية في الغفلة والغباء.

وما نظن أحداً في تاريخ مصر والمصريين بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن ممتى من التشهير بقراقوش وحكوماته بين الناس، وهو لم يبلغ ذلك عن طريق هجائه لقراقوش بالشعر، وكان شاعراً ممتازاً، وإنما بلغه عن طريق هذه النوادر الشعبية التي اختارها لغة المصريين الدارجة، وكأنه كان يريد أن يطابق بين ما يرويه وبين اللغة الحقيقية التي كانت تدور بين قراقوش ومن يحكم بينهم من الناس حتى يحافظ على أصل نوادره محافظة دقيقة. ولعله كان يريد هذه النوادر أن تشيع بين العامة، ومن أجل ذلك اختار لها هذه اللغة الدارجة، وهي فعلاً قد شاعت فإن المصريين في مدنهم وريفهم كلما قابلهم حكم ظالم قالوا: "دا ولا حكم قراقوش". وقد يكون قراقوش دون كل هذا الظلم الصارخ الذي صورته ابن ممتى كما يلزم إلى ذلك الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه «حكم قراقوش»؛ فقد نصب نفسه في هذا الكتاب مدافعاً عن قراقوش في تحيز ظاهر. ونحن لا نستطيع أن ننفي ما أثبتته كتاب الفاشوش على قراقوش من ظلم وغباء؛ فإن نفيه لا يدل عليه دليل واضح، بل المعقول أن يكون على الأقل لهذه الحملة التي حملها ابن ممتى على قراقوش أصل من سيرته وخلقه وحكوماته بين الناس.

وقد وفق ابن ممتى توفيقاً لا نظير له حين اختار دار الحكومة ليعرض فيها قراقوش هذا العرض الفكاهي، وهو عرض أراد به أن يشوه الدولة الأيوبية الجديدة كلها ومن تصطنعهم في أعمالها وشؤونها، وإنه ليستمر فيروى نادرة بديعة،